

بحيرة الحولة وما حولها

د. نجلا الخضرا / دمشق

يصف الرحالة ناصر خسرو الحولة فيقول: الحولة معدن الأقطان والازهار وهي أغوار وأنهار[1]

ويقول العلامة محمد كرد علي: أما في جنوب الشام فلسطين فأعظم الأراضي شأنًا ما يسمى شمال بحيرة الحولة حيث النهر الحاصباني والبناس والدان أي أصل الأردن[2].

ويقول الرحالة روبنسون الذي زار المنطقة عام 1838م: في سهل الحولة التربة متناهية الخصب تصلح لزراعة الحبوب وتنتج كميات كبيرة من الغلال والقمح والشعير والذرة الصفراء والبيضاء والسمسم والأرز وغيرها دون جهد ومشقة... ويربي الغوارنة النحل في كغدان اسطوانية مصنوعة من القضبان المتشابكة المطلية بالطين وتغطي بالقش ورأينا المئات منها في سهل الحولة والنحل يجني من زهره النضر الدائم[3]

سهل الحولة منطقة زراعية تقع شمال فلسطين وهي من أخصب البقاع في فلسطين والعالم وذلك لوفرة مياهها ومحطة لاستراحة الطيور المهاجرة على طول الوادي المتصدع الكبير بين افريقيا وآسيا وأوروبا الحولة منها البحرة ومنها السهل ومنها برك الغاب أو المستنقعات. يقع سهل الحولة في أقصى الشمال الشرقي من فلسطين حيث يحده جبل الشيخ ومرتفعات الجولان السورية ومن الشمال جبال عامل اللبنانية ولهذا كان سهل الحولة معبرا رئيسيا بين الشمال والجنوب من بلاد الشام إلى مصر ولا سيما عبر جسر بنات يعقوب وظل لحقبة طويلة من الزمن معبرا للقوافل والجيش والقادمة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس[4] ومن الشرق الجولان السوري ومن الغرب جبال الجليل الفلسطينية ومن الجنوب جسر بنات يعقوب حيث يبدأ نهر الأردن بالانحدار نحو بحيرة طبرية، وتقدر مساحة السهل 115 كم مربع، تقع الحولة على خط الغور الأعلى؛ والغور هي الأرض الغائرة بين جبلين وتغور الحولة في كتف الجليل[5].

أما البحيرة فهي صغيرة حلوة المياه محاطة بمستنقعات، تقع شمال بحيرة طبريا على مسار نهر الأردن احتلت مساحة 14 كم مربع، وأخذت شكل الكثرى تتعرج عض سواحلها بزوايا بارزة ولا يخلو وسطها من الجزر الصغيرة تبلغ مساحتها 14 كم مربع وامتدت المستنقعات حولها مساحة 60 كم مربع وكان عمق البحيرة الأقصى 6 أمتار ويقل إلى 2 م ولا يتجاوز طولها 6 م

وغرضها يبلغ 4,4 كم من طرفها الشمالي و 0,8 كم من الطرف الجنوبي، لا تشغل البحرة وسط السهل الوادي تماما فهي أقرب إلى الشرق وكانت الاهوار والمستنقعات تحف بشواطئ البحيرة الشمالية وتحتل مساحة أكبر من شواطئ البحيرة ذاتها وتغطي مع البحيرة النصف الجنوبي من الوادي الذي يبلغ طوله 25 كم أي أن طول البحيرة مع المستنقعات 13 كم

قام العدو الصهيوني بتجفيف البحيرة بدأ من عام 1951 وحتى عام 1957 م وتحويلها إلى أرض زراعية

سميت بالحولة نسبة إلى حول أو شول أحد أبناء آرام وقد أطلق عليها السكان المحليون أسماء كثيرة منها بحر بانياس وبحر حيط نسبة إلى منطقة حيط المشهورة بزراعة القمح والواقعة جنوبي غرب البحيرة وسميت الملحة أو الملاحه نسبة إلى القشور الملحية في بعض سبخاتها المجاورة للبحيرة [6] ، وذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان: أن سهل الحولة اكتسب اسمه من بحيرة كانت تحتل القسم الجنوبي غربها اليونان باسم أولاتا وسميت في وثائق رأس شمرا باسم سمخو ويذكر أيضا أنها كورة بين بانياس وصور من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة [7].

أطلق على ديار الحولة اسم بلاد الخيط والخيط هو نهر الشريعة (الأردن) لاستدامته واستقامة مجراه حتى سهل الحولة. ورد ذكر بحيرة الحولة في وثائق رأس شمرا المكتشفة عن زمن الكنعانيين باسم بحيرة سمخو وكرها المسعودي ببخيرة كفرلا نسبة إلى كفرلا القرية التي ذكرها المهلب في رحلته زمن الفاطميين، وذكر العثماني صاحب مؤلف تاريخ صفد بحيرة الحولة باسم بحيرة قدس لقربها من موقع قرية قدس مما منحها قداسة تاريخية، وكرت الحولة باسم بحيرة المليحة في رحلة ابن الجيعان وفيها الملاحه واطلق عليها بحيرة بانياس نسبة لمدينة بانياس السورية ، واطلق عليها بحيرة سمكون لكثرة السمك فيها وكثرة أنواعه

التقى في سهل الحولة ثلاثة أنهار نهر بانياس ونهر اللدان الذي عرف بنهر تل القاضي ونهر سنير من لبنان ويتم اللقاء في بركة تل الشيخ يوسف التي قيل عنها مربط الماء بسبب هذا الالتقاء الذي يشكل نهر الشريعة. لم يكن ماء النهر يصب في بحيرة الحولة بقدر ما أنه كان يمر منها حيث يستمر تدفق النهر وجريانه إلى داخل البحيرة (المي بتسبح بالمى) على حد تعبير أهل المنطقة [8]

تكونت بحيرة الجولة نتيجة تجمع مياه الجبال التي جرفت معها كميات من الطين مكونة بحيرة صغيرة في عاية الجمال وما يميز البحيرة أنها كونت في أرضيتها جرنًا كبيرًا صعب خروج المياه من البحيرة ومع تراكم كميات المجروفات والطين وارتفاع القصب في البحيرة باتجاه نهر الأردن الجبلي تكونت المستنقعات شمالي البحيرة واكتست البحيرة بالاعشاب الكثيفة التي شكلت عامل جذب لطيور نادرة وحيوانات مائية كالجاموس الذي انتشر فيها وكذلك انتشار الملاريا في المنطقة والمناطق المجاورة [9]. وهناك كميات كبيرة جدا من فحم الخث موجودة في رسوبيات البحيرة وهو على ثلاث مستويات مستوى سفلي رقيق 1م تقريبا ومستوى أوسط سميك 54م ومستوى علوي سماكته 13م وهذه الأنواع من الخث لا تستطيع مياه

الأنهار تصريفها وهي تحتوي على نسبة عالية من المادة العضوية[10].

انتشرت في محيط الحولة عشرات القرى والعزب الفلسطينية منذ فجر التاريخ وحتى نهاية العهد العثماني وفي عصر الانتداب وبعد معاهدة سايس بيكو بقي منها في منطقة الحولة: آبل القمح، البويزية، بيسمون، التليل، جاحولا، جليينة، الحسينية، الخالصة، آل عيسى الابراهيم، آلحمادة(الحميدة)، آل الخطيب (الخطابية)، آل الدوالي، آل الفريجات، خان الدوير، خربة السمان وعين الزاغة، الخصاص، خيام الوليد، الدرباشية، الدردارة، الدريجات،الحوارة،ديرميماس (الحورة)، الزاوية، الزوق التحتاني والزوق الفوقاني، السنبرية، شوكا التحتا، الصالحية، العبسية، عرب الزيد، العزيزات، العلمانية، عين التينة، غرابة، القيطية، كراد البقارة،كراد الغنامة، للزازه، المداحلن المفتخرة، الملاحة، المنصورة، منصوره الخيط، الناعمة، الويزية، يردا، التي اعتمدت في معيشتها على تربية الجواميس والماعز وصناعة الحصر وزراعة الحبوب وصيد الأسماك، وقد عمل العدو الصهيوني على استملاك الأراضي عن طريق الوكالة في فترة الانتداب من اقطاعيين لبنانيين تملكوا الأراضي منذ الفترة العثمانية. وفي عام 1948م قام العدو باحتلال أراضي الحولة وقراها فشهدت تلك المناطق مجزرة ارتكبتها العصابات الصهيونية وقامت بقتل النساء والاطفال والشيوخ واحراق بعضهم أحياء ومن ثم احراق الجثامين أمام عيون من بقي لنقل ما شاهدوه من رعب وخوف ومجازر ليسهل بذلك عملية تفريغ الأرض من سكانها وتهجيرهم ومن ضحايا المجزرة: عدنان توفيق، قاسم ادريس، لطفي زين الدين، بسيم أبو بكر[11]

زراعة في الحولة:

سمي سهل الحولة بجورة الذهب بسبب كثرة الغلال الي كان يغل بها أهل المنطقة والحبوب التي كانت تكفي لطعام أهالي صفد وبانياس ومرج عيون. زراعة أهل سهل الحولة القمح والشعير والسّمسم والرّز بالرغم من أنه قلما يزرع في فلسطين وبلاد الشام تلك المحاصيل وسمي السهل بمرج الرز والوز[12]. كانت النباتات المائية كاللوتس والبردي والبوص والحلفاء تغطي سطح البحيرة وأطرافها وكانت الجزر مغطاة بنباتات يصل ارتفاعها إلى 3م أحيانا لذلك كانت أطراف البحيرة خادعة يصعب الاقتراب منها ومياها صافية رائقة حتى وقت الفيضانات لان النباتات الكثيفة شكلت حول أطرافها الشمالية مصاف تمنع وصول ما كانت تحمله الأنهار من طمي ورسوبات.

نمى في الحولة أشجار السدر والدُّلب والسنط والسمار والبردي والكلخ والصفصاف والحلّف والباير فبرك الماء الراكض كان لها أثر فيتكوين هذه الخميلة الشجرية التي ميزت غابة الحولة عن أي غابة أخرى في فلسطين.

الحيوانات في الحولة:

عاش في البحيرة 260 نوع من الحشرات و95 نوع من القشريات و30 نوعا منالقواقع و21 نوعا من الأسماك و7 أنواع من البرمائيات والزواحف و131 نوعا من الطيور المهاجرة بين أوروبا وأفريقيا و3 أنواع من الثدييات[13].

شكلت منطقة الحولة مرتعا خصبا للمواشي وتربيتها باعتبارها منطقة زراعية مثل الأبقار والاعنام والماعز أماغزارة المياه فقد كانت مناسبة لتربية الجاموس، كما احتوت البحيرة على أنواع مختلفة من الأسماك منها البني وكان بعض سكان القرى في السهل يعملون في صيد الاسماكولا سيما أهالي قرية الملاحة[14]

وقد ذكر المقدسي وجود سمك البنيغح الباء في بحيرة الحولة منذ زمن الفاطميين وأشار إلى أنه حمل في العصر العباسي إليها من نهر مدينة واسط العراقية.

يهرب سمك البني قبل غروب الشمس من بطن البحيرة إلى كتفها على الشاطئ في تقليد يعرفه أهل الحولة لذلك كان صيده يجري عصرا قبل الغروب ومن هنا جاءت أغنية صيد العصارى.

كان البني نادرا وصيد صعبا والاعرب فيه أنه لم يغادر البحيرة مع النهر إلى طبريةمثل باقي السمك بل بقي في الحولة وارتبط بها، فالبني لم يعرف عنه في أي بيئة مائية في فلسطين سوى الحولة.

ومن الأسماك الأخرى سمك السلور والبربوط وهو الأكبر حجما ارتبط صيده بأكلة الصيادية مطبوخة برز سهلها.

عرف أهل الحولة أيضا سمك المشط الأبيض في بحرتهم ومن سمكها العقر الذي يشبه المشط لكنه أصغر منه حجما وهو من أجل أسماك البحيرة معروف بلونه الأصفر.

كان صيد السمك يتم بواسطة الجوزوهي الطريقة الأشهر لدى أهل البحيرة والجوز هو شبك يربط بفلين من أعلاه وفي أسفله مشبوك بالرصاص، يمد الجوز داخل ماء البحيرة لساعات وأحيانا يترك في الماء إلى اليوم الثاني ثم يسحب الصيادون ويفرغوه من صيده. وفي فترة الانتداب اقتصر الصيد على سمك محتكرا ومشروطا بترخيص من سلطات الانتداب فاقصر الصيد على سمك النهر في الشريعة فقط وهنا لم تعد البحيرة ملكا لسكان الحولة[15]

أما فيما يخص الطيور فيعيش في الحولة الزاغ والزرزور والسमान وبط جرمان ووز البحيرة وبجعها كل تلك الطيور كانت تحت مرمى حصى مقالع أهل الحولة ، أما الغري فهو سفير البحيرة إلى العالم لأنه غير مستوطن فيها انما يهاجر إليها ويزورها في بداية شتاء كل عام، يشبه الغري الدجاج لونه أسود وعلى رأسه عرف أبيض اللون تعود أهل الحولة على صيده وأطلقوا عليه اسم غورهم في حين اعتقد البعض أنه سمي بهذا الاسم بسبب بياض غرته. كان وجبة لذيدة على موائد أهل الحولة وأغنية تردد في سهراتهم فغنوا مطلع الأغنية: يا طير الغري البري...سلمتك أمري وسري.

ولا ننسى طير أبو سعد وهو طير مقدس بالنسبة لأهالي الحولة حتى أنهم حرّموا صيده فحاطبوه: لحملك طلال في شرعنا وصيدك حرام. هكذا بقي أبو سعد شيخا على بحيرة الحولة حتى أصبحت رؤيته مبعثا للطمأنينة والسكينة لدى أهلها.

وعليها ألد ننسى الجاموس الذي عاش في تلك القعة الفلسطينية دون غيرها ولا تخلو صور البحيرة أيا كان غرضها أو اتجاهها من الجاموس وكأنه هويتها ودليل إشارة لها. عاش الجاموس في بحيرة الحولة لأنه يبحث عن مكان ليهجع به لا ليرتع به فقد عرف عنه أنه يرعى الكلاء قبل شروق الشمس وفي ساعات العصر قبيل غروبها بينما يظل طول النهار باركا في البحيرة أو ببرك الغاب، فكانت الحولة مقصدا لكل سكان قضاء صفد من طالبين لحم الجاموس وحليبه فكان لبن الجاموس حلو وأقل ملوحة من لبن البقر والماعز فتحدث عنه صاحب كتاب أحسن التقاسيم كما لو أنه دواء صاف بياضه رائبا وباردا في مواعين فخارية.

الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد: أكد الرحالة العرب وغير العرب من أخصب المناطق في بلاد الشام ، وتشير المصادر الرومانية أن منطقة الحولة تنتج نبات البردي الي يستخدم لصناعة الورق وكان يصدر لمختلف أنحاء العالم، وقد اشتهرت المنطقة بصناعة الحصر والسلال بسبب وجود نبات البردي في محيط البحيرة والمستنقعات المائية الكثيرة[16]. أطلق عليه أهل الحولة اسم البايير وهو نبات دائم الخضرة، تبقى عروقه خضراء على مدار السنة يصل طوله إلى المترين، يزداد قطفه في فصل الصيف، فبعد قطفه يترك في الغابة لمدة أسبوعين يترك حتى يجف ويميل لونه إلى البياض ثم تصف الأعواد على شكل حزم تنقل عن طريق البحيرة إلى حيث البيوت والسكن جنوبا حيث تنتظره النساء من أجل نسجه على الأنوال

إذ يقوم الرجال بقطع وقطف البايير من الغابة بينما تقوم النساء بقشطه وسله خيطان ثم نسجه حصر على النول. فما من بيت من بيوت الحولة إلا وفيه نول مصنوع من خشب سنطالغابة نفسها.

تحمل الحصر إلى صفد ومن هناك يشتريها تجار نابلس لبيعها في كل أنحاء فلسطين وكان سكان الحولة يحملونها على أكتافهم ويتجولون به بين الضياع والقرى في بانياس ومرج عيون لبيعه وهم يصيدون من البايير يا حصير[17]، كما استخدموا نبتة الحلفا في صناعة الحبال ولفها

يذبح سكان الحولة في أعراسهم الجواميس ويطبخون بلبنها واستحب منه لحم البطش أي عجل الجاموس لقلة دهنه وطراوة لحمه، أما المجهول وهو فحل القطيع فكان يقدم مهرا للعروس بينما الشمبور هو ذلك الذي يتم خصيه من أجل استخدامه لأغراض الفلاحة وحرث الأرض.

كانت صرخة من العياط في الغابة تكفي لترك الجاموس مرتعه مغادرا الغابة نحو أحواشه عند بيوت أهالي الحولة.

سكن أهالي الحولة بيوت الطين وصنعوا الخيام على نوعين: نوع سمي بالعريشة وهو مصنوع من القصب والبايير طويلة ومستورة من جميع أطرافها ومكشوفة فقط من الأمام وكانوا يستحضرون ويصنعون جميع لوازم هذا النوع من القصب أو البايير فتفرش الخيمة بالحصير وعدة جرار وفرشات ومساند ولحف، أما النوع الثاني من الخيام يستخدم في الشتاء ويسمى بيت الشعر الي يصنع من الصوف ويشبه في شكله العريشة لكن لونه أسود ونسيجه قاس.

تكبر الخيمة وتصغر حسب طبقات وأصناف العشائر ومراتبها فتكون ذات أربع غرف أو ثلاثة أو اثنتين أو واحدة.

فيما يخص لبس المرأة في سهل الحولة فقد كانت تلبس العضة والفه رماليا وتضع على رأسها غطاء أسود من القماش وتضع الصمادة أو نوع من العقال المصنوع من القماش السود المبروم لكنه مربوط من الخلف بصورة مهمة وتسمى بالعصابة.

كانت المرأة تحمل على ظهرها جرتين مملوءتين بالماء وقد ربطتهما بحبل طويل يصل بين ساعديها وهي تقطع المسافة أكثر من مرة في اليوم بين الخيام وبين النبع المسمى عين الذهب [18]

من أشهر عادات أهالي التي تتميز بها المنطقة عندما يحل موسم زيارة النبي يوشع في قرية النبي يوشع التي تقع بين الملاحة وجاحولا بالقرب من بحيرة الحولة وهي واحدة من القرى المهجرة ولك في النصف الثاني من نيسان إذ يبيت الزوار حول المقام ما بين ليلة أو ليلتين وكان الموسم يستمر ثلاثة أيام توفى فيها النذور وتذبح الذبائح وتنشد المدائح وتبتهل الصدور، وكانت دفوف ومزاهر دراويش خيام الوليد تصدح من بحيرة الحولة قادمة مع النهر من السهل. كان زوار المكان يشربون من بئر عند المقام وينشلون منه الماء ليحملونه معهم لأحبابهم والطلابين له [19].

الممارسات الصهيونية على بحيرة الحولة وأهلها:

قامت الجمعية البريطانية بدراسة أراضي فلسطين ومياها عام 1873م وخلصت إلى أنه بالإمكان ري أراضي فلسطين من مياه الشمال وفي عام 1925م تطلع البارون روتشيلد إلى تجفيف بحيرة الحولة ووضع مشروعا سريا لها الغرض، وظل حلم امتلاك مستنقعات الحولة لتجفيفها واستثمارها وإنشاء المستعمرات على أراضيها الخصبة يراود الصهاينة إلى أن سنحت الفرصة لتحقيق ذلك بعد أن اغتصبوا معظم فلسطين عام 1948م وكان تجفيف بحيرة الحولة أولى الخطوات التي اتخذها العدو لتنفيذ مشروعه لجر مياه الأردن إلى النقب كما كان ذلك التجفيف عنصرا من عناصر مشروعات المياه التاريخية كمشروع لورد ملك ومشروع هيز ومشروع جونستون [20].

طرد الكثير من السكان سواء كانوا من أهالي القرى المجاورة أو من البدو الرحل البين يعيشون في المنطقة معتمدين على تربية الحيوان مثل عرب زبيد وعرب الغوارنة وتدمير القرى العربية على يد قوات الاحتلال بعد تهجير سكانها [21]، وخسر سكان الحولة مصدرا هاما من مصادر الأسماك وخسرو الكثير من النباتات الطبيعية الصالحة لرعي الحيوانات وفوق كل ذلك حرموا من استخدام موارد بيئتهم الطبيعية بإزالة معالمها وتغيير طبيعتها وواقعها وحل محلهم الغرباء من الصهاينة، وقد قاوم أصحاب الأراضي أعمال التجفيف وقومها معهم الجيش العربي السوري، بضربه مواقع العمل ومنشآته والمساهمة في تعطيل أعمال التجفيف وعرقلتها ما أدى إلى إطالة مدة العمل التي كانت مقدرة له إلى ضعفها ومضاعفة تكاليف المشروع هذا بالإضافة للحسائر المادية والجسدية. وقد استند موقف سوريا إلى أن منطقة الحولة منطقة منزوعة السلاح بحسب اتفاقية الهدنة لا

يجوز تغير معالمها وطرد سكانها واستثمار أغراضها لأغراض عسكرية تحت ستار أغراض اقتصادية وإدخال قوات مسلحة إليها.

قام العدو الصهيوني في ليلة 6/4/1951 بقصف القرى الواقعة داخل المناطق المجردة من السلاح تمهيدا لاحتلالها وتمكنوا من فرض سيطرتهم عليها وهي المناطق المحاذية لنهر الأردن من الجهة الغربية لبحيرة الحولة شمالا حتى جسر بنات يعقوب جنوبا.

وعندها بدا العمل جديا بتجفيف البحيرة بهدف زيادة مساحة الأراضي الصالحة للزراعة والتقليل من فقد المياه في البحيرة عن طريق التبخر لتخفيف إصابات الملاريا وتحويل البحيرة لمحمية طبيعية [22].

لم يأت المشروع بنتائج المتوقعة والتي أعلن عنها بل أدى للعديد من المشاكل البيئية والزراعية الخطيرة مثل حرائق الخث وهبوط التربة وغمرها وفقدان الأنواع الحيوانية النادرة المتوطنة في المنطقة إضافة لزيادة الضغط على بحيرة طبريا التي تعد مخزن الامداد الرئيسي للمياه العذبة في فلسطين والتي أصبحت ملوثة بسبب الرسوبيات التي انتقلت إليها من البحيرة عبر القنوات التي تم فتحها بغرض تجفيف بحيرة الحولة، بينما كانت أرباح المزارعين من الأراضي الجديدة قليلة جدا.

مع تقدم المشروع وبعد ثلاث سنوات بدأت الانتقادات تزداد إذ تجمع المحتجون في منظمة أنشؤوها آنذاك سميت المنظمة الإسرائيلية لحماية الطبيعة وفشلت محاولات المنظمة لايقاف المشروع _لأن للمشروع أهداف احتلالية تخريبية مخفية- لكنها استطاعت اقناع المسؤولين عن التجفيف بالحفاظ على 3'2 كم مربع من مساحة البحيرة كمحمية طبيعية في التسعينات. وبعد أن يئس أغلبية المزارعين من إمكانية استغلال أراضي الحولة.

ففي دراسة حديثة يؤكد البروفسور موشيه غيفن وهو باحث إسرائيلي مختص بشؤون البيئة والأنهار والبحيرات أن عملية تجفيف الحولة في السنوات الأولى بعد النكبة أدى إلى تطورات سلبية رافقتها تغيرات مناخية في المنطقة ويستند غيفن الباحث في معهد معرفة الجليل على خرائط قديمة للحولة وعلى معطيات هطول الامطار في فترة الانتداب البريطاني، ومن هذه الاستنتاجات أن معدل درجات الحرارة في منطقة الحولة قد تعرضت لثلاثة تحولات جوهرية منذ 1946م حتى 2008م وهي فترة تدخل فيها الكيان الصهيوني بالطبيعة مرتين الأولى عندما جففت البحيرة والثانية عندما عادت وغمرت أجزاء منها عام 1995م ما أدى إلى التغيرات كبيرة وسريعة بين التجفيف والغمر في درجات الحرارة وذلك أن المياه كانت تمتص جزء كبير جدا من الطاقة الحرارية التي تطلقها أشعة الشمس. إضافة إلى نقص في المساحات الخضراء التي عمل على ترطيب المكان فبقيت تربة السهل مكشوفة بعد تجفيف البحيرة في ظل زراعة غير منتظمة وقد اتضح فيما بعد أن سبب هذا الفشل الزراعي أن أرضية البحيرة مليئة بالاملاح ولا تصلح للزراعة بل شبت فيها العديد من الحرائق لسهولة اشتعال المواد العضوية المتعفنة فيها ما دفع المزارعين لتركها، والامر الذي لم يؤخذ بالحسبان أن تربة الحولة بعد تجفيفها هبطت ثلاثة أمتار عن ارتفاعها الأصلي إضافة إلى تبعثر تربتها في الهواء.

تبين لاحقا أن ما اعتقد أنه سيتحول لمرج زراعي خصب أنه ورطة كبيرة فالمواد التي يجرفها معه نهر الأردن خلال مروره بمنطقة تجفيف البحيرة تضر بجودتها ولا بد اليوم من تعويض تلك الخسائر وتعويض المزارعين وتوفير كميات من المياه بأسعار منخفضة وتحويل آليات أخرى لتدارك الخسائر والأضرار الناجمة عن فشل المشروع[23].

75سم من سطح البحر

وبعد الخسائر الكبيرة للمزارعين الجدد بسبب التلاعب بالبيئة وتغير قوانينها يحاول الكيان الصهيوني إعادة غمر البحيرة للتمكن من استعادة شيء منها بعد أن أنهى مشروعة الاحتلال الاستيطاني[24].

وفي عام 1994 غمرت الأمطار جزء من المنطقة بالمياه فتم الإبقاء عليها بهدف استصلاح المنطقة وتم العمل على محاولة غمر العديد من الأجزاء الأخرى عن طريق انشاء 95 كم من قنوات الفيضانات والصرف الضحلة لرفع متوسط ارتفاع منسوب المياه في المنطقة إلى 75 سم فوق سطح البحر.

كان لإعادة الغمر هدفين رئيسيين الأول هو منع أو تقليل التلوث بالتترات من الحث بهدف حماية بحيرة طبريا والثاني هو الحفاظ على تربة الخث بعدما بدأت ذراتها تتطاير في الجو ماجعل المنطقة مغبرة طيلة أيام الصيف.

سمي هذا المشروع مشروع أغمون ويعمل العدو الصهيوني اليوم على استقطاب السياح والزوار سنويا حيث تعد المنطقة وفيرة بالحياة البيئية وموطنا للعديد من الطيور وهي مناسبة لممارسة الأنشطة الرياضية.

باء المشروع بالفشل أيضا لأن الطيور المهاجرة إلى أوروبا وأفريقيا لم تعد وتوقفت طيور اللقلق والبلشون والغاق والرهو التي كانت تطير فوق البحيرة في رحلتها مع بدء الشتاء البارد تمر فوق منطقة الحولة لكونها جزء من الشق الإفريقي مستغلة التيارات الهوائية الساخنة المتصاعدة من تبخر مياه البحيرة منها للأعلى في عملية طيرانها الطويل.

نتائج الدراسة:

بلغت أبعاد البحيرة قبل تجفيفها 4'4 كم عرض و 5'5 كم طول ومساحتها حوالي 21 كم مربع في الصيف و 60 كم مربع شتاء أما الأراضي المحيطة بها فبلغت 3500 هكتار مغطاة بالطحالب الخضراء بشكل كامل في الشتاء بسبب ارتفاع منسوب المياه وبشكل جزئي في الصيف مما أدى إلى صعوبة استغلال المنطقة زراعيًا. وهذه كانت حجة العدو الصهيوني إضافة إلى أنها مكان تجمع الحشرات والعوض وسبب انتشار مرض الملاريا.

دافعت الأرض عن نفسها أمام الكيان الصهيوني وواجهته فكانت عقبات تجفيف البحيرة وكأن الأرض بترباتها ومياهها ترفضهم وترفض وجودهم وممارساتهم ضدها فقد كانت عملية القضاء على الأعشاب البرية الكثيفة لاستصلاح الأراضي

وتهيئتها للزراعة عملية شاقة تطلبت وقتاً طويلاً، إضافة إلى ارتفاع منسوب الجير في قاع البحيرة المجففة ما أدى إلى صعوبة زراعتها. إضافة إلى الانسداد الدائم في قنوات الجفيف التي حفرّت لتصريف مياه البحيرة وتحويلها إلى نهر الأردن بسبب تراكم الوحل والطيني

عمل الكيان المحتل على خرق الاتفاقية مع سورية والتعدي على سيادتها وتعرضه للمنطقة المزوعة السلاح وإقامة المنشآت عليها فتقدمت سوريا بشكوى إلى مجلس الأمن فتوقف العمل فترة من الزمن ثم استؤنف ما دعى الطرف السوري إلى الرد عسكرياً لوقف أعمال التجفيف فأخذ يضرب المنشآت بقذائف مدفعية من حين لآخر لكن العدو استطاع اكمال مشروع الاحتلال والتعدي على حقوق أصحاب الأرض الأصليين.

يعد مشروع تجفيف البحيرة من المراحل الأولى لمشروع جونسون والمشروع الاسرائيلي لجر مياه نهر الأردن للنقب وهما مشروعان يساهمان في تثبيت الكيان الصهيوني وسرقة مياه المنطقة واستجراها لمصلحة الاحتلال.

كان اتجفيف البحيرة مصالح حفية لم يعلنها الكيان الصهيوني لكنه قام بتنفيذها للوصول لغايته وهي إزالة المعالم الجغرافية الطبيعية للبحيرة والمستنقعات المحيطة بها والذي يعد انتهاكا صارخا لمبادئ حقوق الانسان لأنه تم في ظروف الاحتلال من جهة وبدون الأخذ برأي أصحاب المنطقة الشرعيين والأصليين من جهة أخرى، بل وقد عمد الاحتلال من خلال هذا العمل لطرد أهالي المنطقة وحرمانهم من حقوقهم في استغلال موارد سهلهم. ومن أبرز المقاصد وأهمها بالنسبة للعدو الصهيوني منع رجال المقاومة من الاستفادة من المعالم الطبيعية في التخفي والحركة ومن جهة أخرى أصبح لدى العدو القدرة على الحركة السريعة في استخدام الآليات والدبابات أثناء العدوان على سوريا ولبنان بعد إزالة الحواجز الطبيعية إضافة إلى أن المنطقة أصبحت مكشوفة للمراقبة ولقصف الطيران.

يعد تجفيف البحيرة حلقة من حلقات مسلسل مشاريع الصهيونية لمصادرة الموارد المائية والطبيعية ونهب أكبر كمية ممكنة من المياه وحرمان الفلسطينيين وشعوب الدول المحيطة بها ويشكل هذا العبث في الطبيعة تبعاً للأنواء والمطامع الإسرائيلية انتهاكا وجريمة بحق البيئة والتوازن البيئي والتراث الإنساني.

أدت عملية تجفيف البحيرة إلى التغير النظام البيئي والتركيبية الجيولوجية للمنطقة وتغير التنوع الحيوي لها وكانت النتيجة كارثية، فقد قضى على أنواع كثيرة من الكائنات الحية منها طيور البجع والغطاس التي اعتاشت على صيد الأسماك والتي وجدت طلبها في برك السمك الزراعية كتعويض عن البحيرة الزائلة مما ألحق الخسائر بالمزارعين، وقد انقرضت أنواع من الأسماك النادرة التي اعتبرت الحولة موطنها الوحيد في العالم أهمها سمكة السيينيد من فصيلة السردينيات وسمكة من فصيلة سكاليد إضافة إلى ضفدع الحولة الفلسطيني الملون كل ذلك كان مقابل النجاح في القضاء على البعوض

عمل العدو الصهيوني على احتلال وعي الناس بمزاعم حول تحويل المستنقعات لحدائق في سياق مقولة أرض بلا شعب

لشعب بلاد أرض وللمتهدف الصهيونية لتحقيق غايات دعائية فحسب بل شرغت بتجنيد التبرعات المالية خلال الخمسينات ولم يجر الحديث في وقتها عن تجفيف بحيرة بل كان الحديث عن تجفيف مستنقعات، وكان رئيس وزراء الكيان ديفيد بن غوريون قد قرر تجفيف بحيرة الحولة واستغلال أراضيها لتكون بيدرا للخضروات والحبوب في ظل تدافع المهاجرين الجدد من الصهاينة إلى فلسطين، لكن منغذوا المشروع والمخططون له لم يستلهمون الاعتبارات الحسائية العلمية بقدر ما كانت اعتباراتهم احتلالية أيديولوجية ترتبط بالمزاعم الصهيونية

طالما زعمت الصهيونية في حملاتها الدعائية لتبرير احتلالها وممارساتها بأنها جففت المستنقعات وحولت القفار والصحاري إلى حدائق خضراء لكن تجربة بحيرة الحولة في شمال البلاد تدلل عكس ذلك ويكشف خبراء الري والزراعة أن المشروع تسبب بمضار كبيرة.

كانت الحولة حالة نادرة بمقاييس عالمية فهي منطقة التقاء المناطق الحارة بالمناطق الباردة ومكان لاستراحة الطيور المهاجرة ومرتع للجاموس ومكانا لراحته وموطنا لما ندر من أسماك وطيور وبرمائيات وثديات لم يجدوا في هذا العالم مكانا لبناء وطن إلا هناك في حولة فلسطين حيث لا بديل إلا الموت والانقراض دونه

فقد هجرت الصهيونية البشر والطيور والسمك والماء والحجر وكل ما عاش في الحولة من حيوانات بأنواعها المتعددة ودمرت البيوت والأكواخ والأعشاش ومواطن احتمت فيها المخلوقات وطرق ومسارات على أرض أو في السماء وحتى ماكان في المياه والأنهار واختفت الحشائش والأعشاب والنبات وزهور اللوتس وأعمدة البايير . كانت الحولة شاهدا قويا على الحقد الذي يكنه العدو للطبيعة وأهلها وعلى عنجهيته وحبه للدمار والخراب.

[1] خسرو. ناصر، سفر نامة، ص39

[2] كرد علي. محمد، خطط الشام، الجزء 4 دمشق، 1927، ص1994

[3] روبنسون. ادوارد ، ت: شحافي، يوميات في لبنان، م ج 2، وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة بالترقي، بيروت، 1950، ص3

[4] حسن. محمود، الحولة، سلسلة طريق القدس لحياء الذاكرة الفلسطينية4، جمعية الصداقة الفلسطينية الإيرانية صفا،

[5] حبيب الله. علي، الحولة... بحرة الغوارنة وبر الغر والبايير، 16 يونيو 2021، متراس، <https://metras.com>

[6] المعرفة، وادي الحولة، <https://m.marefa.org>

[7] الحموي. ياقوت، معجم البلدان، الحولة، بيروت، 1957

[8] حبيب الله. علي، المرجع السابق

[9] موسوعة المصطلحات، بحيرة الحولة، مدار، <https://www.madarcenter>

[10] حسن. محمود، المرجع السابق، ص 11

[11] عواودة، وديع، بحيرة الحولة... ضحية الرجل الأبيض الإسرائيلي، 11 أكتوبر، 2014، القدس العربي،

<https://www.alquds.co.uk>

[12] حبيب الله. علي، المرجع السابق

[13] ثوابتهة. شروق، بحيرة الحولة، 8 مايو 2022، موضوع، <https://mawdoo3.com>

[14] حسن. محمود، المرجع السابق، ص 21

[15][15] حبيب الله، علي المرجع السابق

[16] حسن. محمود، المرجع السابق ص 19

[17] حبيب الله. علي، المرجع السابق

[18] حسن. محمود، المرجع السابق، ص110-111

[19] حبيب على، المرجع السابق.

[20] الموسوعة الفلسطينية، الحولة.

[21] المعرفة، وادي الحولة، <https://m.marefa.org>

[22] ثوابتة. شروق، المرجع السابق.

[23] عواودة. وديع، المرجع السابق

[24] المعرفة، المرجع السابق.